FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

***

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي **كراسات المنتدى**

***

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطباعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020
ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرُّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المديـر المسؤول:
علاء الطـــالبي

أعضاء لجنة التحرير:
حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:
وليد فيّـــــالة

صورة الغـــلاف:
حســـام سعـــاف

طبـــــــاعة:
الطباعة المتضامنة

المحتوى

سفيان جاب الله

تقديم عام للكُرّاس 07

المحور الأولّ: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة..... 22

منـــــال دربالي

لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس. 23

حسـام سعّــاف

هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية. 36

آية بوصحيــح

تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية). 49

يوسف موسى

الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضررا؟.. 60

المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّرًا من الحجر الصحّي..... 76

رضـــا كــارم

النّساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة. 77

هيثم مدوري

عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة. 94

أمل الهـــازل

عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة..... 111

منتصر النغموشي

بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية..... 126

فهمـــي البلطـي

طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطبّاء الموجة الأولى للوباء؟. 145

محمد سليم بن يوسف

أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس.. 163

المحور الثالث: في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر اجتماعيّة إبان الحجر الصحّي 180

خـــالد طبـــابي

ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء.... 181

حـــازم شيخاوي

في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا.. 202

أحمد الســـاسي

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكبّاريّة نموذجا..... 214

المحور الثاني:

بورتريه الفئات السوسيو- مهنيّة الأكثر تضرّرًا من الحجر الصحّي

بورتريهـات عاملي[1] المقـاهي والحانـات في زمن الكورونـا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية

منتصر النغموشي

الملّخص

وباء كورونا لا يمثّل مشكلة بقدر ما يبدي عوارض مشاكل الأنظمة النيوليبرالية الحديثة. منذ ثمانينات القرن الماضي وانسحاب الدولة من دورها الاجتماعي رويدا رويدا، تفاقمت مشاكل قطاعات واسعة تمثّل ضروريات للمجتمعات، أهمّها قطاع الصحة. فرض تدهور هذا القطاع اعتماد سياسة غلق كامل وحجر صحّي شامل مبكّر تفاديا لكارثة محتملة تعجز البنية التحتية الهشة لقطاع الصحة عن تحمّلها. آثار هذا الحجر يمكن تقصّيها من خلال وضعية الفئات الأكثر تضرّرا من الحجر مثل عاملي المقاهي والحانات الذين وجدوا أنفسهم خارج حسابات الدولة لأسباب عدّة ندرسها في هذا المقال من خلال بورتريهات البعض منهم.

Abstract

The pandemic caused by the Corona virus is not a problem as much as it highlights problems caused by the neoliberal systems. Since the 80s governments abandoned their social roles slowly, the problems of large sectors that present necessities to societies aggravated more and more, the public health sector is one of the most damaged sectors. Precisely, it is the bad public health infrastructure that lead a country like Tunisia to go directly under lockdown in a very short time span, in efforts to avoid a catastrophic situation that authorities knew for sure that they could not outstand any delays. The lockdown however was the origin of more social and economic problems that the most fragile workers like those who work in coffee-shops and bars suffered as they remained out of any procedures took by the authorities. We try to study their situations using different sociological portraits of these workers.

[1] أنظر مؤطر 1

إنّ عبارة "نحن أمام عدوّ لا مرئي" هي استعارة قلقة. إذ لا يمكن تصوّر نزاع سياسي يكون العدوّ فيه لا مرئيّاً. ومن ثمّ فإنّ الخطاب السّياسي الّذي يراهن على تنصيب الوباء بوصفه عدوّاً لا مرئيّاً، هو يضلّلنا. إنّ الوباء ليس عدوّاً سياسياً إلاّ مجازاً. وهو مجاز فلسفي لكنّه غير مفيد سياسياً. ذلك أنّ الدّولة الّتي تلجأ لهذا الخطاب تُعفي نفسها من وظيفتها "السّياسيّة".

فتحي المسكيني[2]

في ساعة مبكرة من يوم الخميس 27 فيفري 2020، تحصلت حكومة إلياس الفخفاخ على موافقة المجلس بـ 129 صوتا، إنه أقل عدد أصوات تتحصل عليه حكومة في المجلس منذ حكومة الباجي قايد السبسي في 27 فيفري 2011 التي جاءت نتيجة لتوافق مكونات المشهد السياسي من أجل الإعداد لانتخابات مجلس تأسيسي وتحقيق الانتقال الديمقراطي.

حكومة إلياس الفخفاخ التي جاءت بعد مخاض عسير، هي بالتأكيد ليست من أقوى الحكومات منذ 2011، لكنها جاءت في سياق يمثل تحديا لتونس وللعالم.

في نفس الوقت الذي عاشت فيه تونس هذا المسار السياسي (أي بعد الانتخابات بداية من أكتوبر 2019 حتى 26 و27 من فيفري 2020)، انطلق فيروس كورونا في الربع الأخير من سنة 2019 في الصين، وأصبح جائحة تهدد العالم في الربع الأول من سنة 2020.

منذ البداية، كانت مقاربات دول العالم في التعامل مع هذا الوباء مختلفة وغير منسقّة: من الحجر الشامل (الصين) إلى الحجر الموجه (ألمانيا) إلى دول رفضت الحجر وتبعاته وحاولت التوجه نحو المناعة الجماعية (السويد، بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية) ثم عادت إلى أحد أشكال الحجر الصحي بعد انفجار عدد المصابين والوفيات. تونس كانت من الدول التي خيرت الحجر الصحّي الشامل، تم تسجيل أول حالة عدوى في الثاني من مارس 2020، لتنطلق الحكومة مباشرة في تطبيق إجراءات تدريجية أفضت إلى الحجر الشامل وإغلاق الحدود منذ 22 مارس. هذه السرعة في تطبيق الحجر خوفا من سيناريو إيطالي أو فرنسي، فسرتها الحكومة بأن البنية التحتية الصحية في تونس ليست بأي حال من الأحوال قادرة على التعاطي مع ما قد يسببه هذا الفيروس، وإلى حد الأسبوع الأول من أفريل، كان رئيس الحكومة قد أعلن بأنه تم إعداد 250 سرير انعاش في 3 مستشفيات للتكفل بالحالات التي تتطلّب عناية طبية، هذا الرقم الذي وصلته الحكومة بعد مجهودات طيلة أيام الحجر الأولى لا ينبئ سوى بتدني وضع المنظومة الصحية في تونس، ممّا زاد من

[2] فتحي المسكيني (1961) هو فيلسوف ومترجم تونسي، له العديد من المؤلفات، يشغل كأستاذ تعليم عال في جامعة تونس. القولة من مقال بعنوان "مشهد البابا وحيداً والحرم المكّي فارغا حدث ميتافيزيقي غير مسبوق يقلب العلاقة بين الزّمنيّ والرّوحيّ (ج3)" صدر في موقع الأوان بتاريخ 8 ماي 2020. رابط المقال
[consulté le 10 Mai 2020]

حالة الهلع العامة التي جعلت الشعب التونسي يأخذ الوضع بجدية تامة ويخضع مباشرة للأوامر الحكومية التي تفرض التباعد الاجتماعي والحجر الصحي الشامل وإيقاف كافة النشاطات التي تسبب التجمعات البشرية، على عكس عديد الشعوب الأخرى التي تمسكت بحريتها بداية. مخلّفات فيروس كورونا ليست فقط مخلّفات صحية، فإن كان هذا الفيروس مسبّبا لمضاعفات صحية، فإنه من وجهة نظر اجتماعية واقتصادية، هو كاشف (**révélateur**) ومسرّع (**accélérateur**) للمشاكل التي تعاني منها الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية حول العالم منذ 1980 وبداية اعتماد الدول سياسات نيوليبرالية. تونس لا تختلف عن هذه الدول، فمنذ بداية اعتماد الخطط الحكومية لمجابهة وباء كورونا ومخلفاته، بدأت عيوب المنظومة الاجتماعو-اقتصادية تظهر، من الآلاف غير المدرجين في منظومة الضمان الاجتماعي، إلى الآلاف الذين يعملون في قطاعات هشة تغيب فيها الوسائل التنظيمية وبالأخص الوسائل الضامنة لحقوقهم الاجتماعية مثل التأمين على المرض و منح التقاعد وطرق التعويض والدعم.

في كل خطاباتها، حرصت الحكومة على إبراز اهتمامها بالأجراء وبحمايتهم من المخلفّات التي يسببها الحجر الصحي وانقطاعهم عن العمل، وعمدت إلى إحداث منح تختلف عناوينها من منح بطالة تقنية إلى مساعدات اجتماعية، إلّا أن مدى جدوى هذه المنح ومدى وصولها إلى مستحقيها يبقى أمرا يستحق الدراسة.

مؤطّر 1: الاصطلاح

نستعمل في هذا المقال مصطلح عاملي بدل عمّال عندما نتحدث عن العاملين في المقاهي، وذلك لاحتواء كلمة "عمّال" على دلالات (**connotation**) تنتفي في حالة العاملين المذكورين.

أوّلها أن كلمة "عمّال" تتضمّن بعدا سياسيا أو مسيّسا يفيد التآزر العمّالي ووجود شكل من التنظّم (نقابة، مجموعة موحدة) بهدف البحث عن مزيد من الحقوق والمكاسب، نذكر كمثال مصطلح "عمّال الحضائر" الذي يتم استعماله دائما في سياق نضالي معيّن مرتبط بنضالات المنتفعين بالآلية 16.

في سياق عاملي المقاهي، تنتفي بالأساس هذه الأبعاد التنظيمية وتغيب أشكال العمل النقابي أو تفشل في خلق نوع من التنظّم القطاعي الدائم في هذا القطاع الذي يعاني جلّ العاملين فيه من غياب عقود العمل ويبقون في حالة عمل غير منظّم .(**travail informel**)

مدخل إشكالي

الحديث على وباء كورونا كتجربة جماعية مشتركة دون الغوص في اختلافات عيش هذه التجربة حسب اختلافات مهن وحرف من يعيشها لا يستقيم، فلا يصح بأي حال من الأحوال أن نضع في نفس الكفة تحت عنوان "تجربة جماعية مشتركة" ذلك الذي عاشه مليون ونصف المليون من التونسيين الذين واصلوا عملهم بصفة عادية أثناء الحجر و/أو ذلك الذي عاشه الآلاف منهم الذين واصلوا العمل أو الدراسة عن بعد مع ذلك الذي عاشه التونسيون والتونسيات الذين أجبرهم الحجر على الانقطاع عن العمل وأحالهم على البطالة لأجل غير مسمى. بينما يواصل العديد عملهم أو يتحصلون على رواتبهم الشهرية بصفة عادية، عاملو وعاملات المقاهي والحانات وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل، هؤلاء الذين يمتهنون مهنة يومية خارج حسابات الدولة وفي أغلب الأحيان مهنة دون حقوق اجتماعية هم اليوم دون قوت يومهم، حيث تخضع مهنتهم إلى قاعدة بسيطة: "تخدم تخلص، ما تخدمش تقعد."

البحث عن تجليات الحجر من خلال تمظهراته في تغيّر العادات والسلوكيات اليومية يكشف مدى أهمية المقهى، ليس كمكان مجرّد من وظيفته (بحكم إغلاقه) بل كمكان ذي بعد رمزي نستكشفه من خلال تجمّع مرتادي المقاهي قربها ومدى حرصهم على تتبع أحوال مقهى الحي والتساؤل عن نكهة رمضانية مفقودة نظرا لغياب المقهى في الليالي الرمضانية.

المقهى هنا يتجاوز دوره الترفيهي ليلعب دور حاضن اجتماعي لروّاده الذين يلتقون فيه دون سابق موعد، هو مكوّن رئيسي للفضاء العام التونسي وفي جلّ المناطق الداخلية بصفة خاصة نظرا لغياب الفضاءات الأخرى، المقهى هو "ساحة الندوة" / أغورا ***(Agora)*** في نسختها التونسية. إنّه "المكان الثالث" ([3])***Tiers-lieu*** في إشارة للمكان الذي يأتي بعد المنزل والعمل، يتميّز بالحياد (***Terrain neutre***) حيث يخلو من منطق الضيف والمضيف على عكس المنازل ممّا يسهّل خلق الصداقات وتطويرها وبالانفتاح (***Ouverture***) بما هو مفتوح للجميع ومتاح دائما (***Accommodant et accessible***).

ما يمتلكه المقهى من رمزية ومكانة، والتطنيب في وصف المقهى كمكان ذي بعد اجتماعي وكعنصر أساسي في الحياة اليومية لجلّ التونسيين لا يجب أن يحجب حقيقة أن المقهى هو أيضا مكان للعمل (***Lieu de travail***) تنطبق عليه علاقات الهيمنة بين الأجراء والمؤجر، إنّها هذه الفئة المغيبة عند الحديث عن المقاهي التي تدفع لكتابة مثل هذه الورقة البحثية، فإن كان خطاب

[3] Ray Oldenburg, The great good place : Cafés, coffee shops, bookstores, bars, hair salons, and other hangouts at the heart of a community, Marlowe, (1999).

مفهوم "المكان الثالث" (من الإنجليزية the third place) هو موضوع أطروحته في علم الاجتماع الحضري. لمزيد من المطالعة حول المفهوم يمكن الانطلاق من الفصل الثاني: مواصفات المكان الثالث (الصفحة 20).

السلطات الرسمي هو حماية الأجراء وتمكينهم من حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية في ظل توقف نشاط مكان عملهم لتطبيق الحجر الصحي عن طريق إجراءات استثنائية وشعارات مثل "بلادكم ما تخليهاش بيكم"، فإن مدى تمتع هؤلاء بهذه التدابير الحكومية وتغير علاقات الهيمنة بينهم وبين مؤجريهم هي مسائل يجب طرحها ودراستها بحكم أن الكورونا هي طارئ على هذه العلاقات.

سنحاول في هذا المقال الإجابة على العديد من الأسئلة، وأهمّها:

كيف عاش العاملون في المقاهي والحانات الحجر الصحي؟

ما مدى تمتعهم بالمساعدات والإجراءات التي أقرّتها الدولة للفئات الأكثر تضرّرا؟

كيف كانت علاقة عاملي المقاهي بمشغّليهم فترة الحجر؟

كيف تعامل القطاع النقابي مع الوضعية؟

مدخل منهجي

الإجابة على مثل هذه التساؤلات تستدعي بالضرورة القيام بالعديد من المقابلات مع عاملي المقاهي والحانات من أجل القيام بعمل إحصائي سليم نستخلص منه بعض الإجابات، لكن القيام بتحويل ما عاشه هؤلاء طيلة الشهرين إلى إحصاء وبضع أرقام ينفي من هذا العمل بعدا اجتماعيا وإنسانيا مهمّا وهو نقل تجربة معيشية لأفراد من فئة هشّة قد تكون أكثر فئة هدّدتها الكورونا، لذلك اخترنا بناء هذا المقال انطلاقا من بورتريهات (**portraits**) نرسم من خلالها صورة لعمال وعاملات المقاهي. من زاوية نظر أخرى، القيام بدراسة جماعية لما عاشه العاملون في المقاهي والحانات قد يحرمنا من مزيد فهم التأطير(**framing**) [4] الشخصي للواقع وهو ما يكتسبه العامل بطريقة فردانية تحكمها تجاربه الحياتية ومحيطه الاجتماعي، من منطلق فهم كلّ شخصية في محيطها على حدة نتمكن من مزيد فهم مقدرات الفعل (**capacité d'action**) وطرقه في زمن الحجر، حيث تختلف على مستوى شخصي طرق العيش تحت الحجر.

ليس المقصود من الصور السوسيولوجية (**portraits sociologiques**) فهم حياة الفرد بل تجاوزه. تسعى هذه التقنية إلى دراسة جزء من المجتمع، كون عامل المقهى جزءًا من هذا المجتمع يجعله يتأثر أساسا بالحياة الاجتماعية ويستوعب الاجتماعي باعتباره متلقيًا.

[4] Erving Goffman, Frame Analysis, Northeastern University Press. Boston (1974).
التأطير هو عمل تقديم "إطار معرفي" بالشكل المناسب للتأمل في موضوع ما، من هذا المنطلق فإن فهم الإطار المعرفي لكلّ شخصية على حدة يمكننا من مزيد فهم فعلها. الفصل الثالث "المفاتيح والمفاهيم" (صفحة 40)

نسعى من خلال الصورة السوسيولوجية إلى رصد الاختلافات الفردية، ويظهر من خلالها أن طريقة حياة الأفراد تتوافق مع التصرفات التي يقدمون عليها، معتبرين هنا أن التصرفات التي أقدمت عليها شخصياتنا المدروسة من كسر الحجر والعمل بشكل سرّي إلى إيجاد عمل آخر مؤقت أو ببساطة عدم فعل شيء هي تصرفات تحددها الصورة الاجتماعية نفسها، وأن منطق العمل يتم غرسه في الأفراد من خلال وضعهم الاجتماعي وحياتهم اليومية.

رسم بورتريه سوسيولوجي يفترض أن كل شخص هو حامل لفكر ومشاعر وطرق فعل وتفاعل تحكمها وتحددها التجارب التي عاشها: إنها نتاج تجارب اجتماعية يمرّ بها الفرد.[5]

لرسم بورتريهات عاملي وعاملات المقاهي في زمن الكورونا، قمنا بالتواصل بطرق مختلفة مع ثلاثة عاملي مقاهٍ، أثناء فترة الحجر الصحي ومتابعة منشوراتهم على وسائل التواصل الاجتماعي والاتصال بهم هاتفيا وحتى لقائهم بصفة مستمرة في إحدى الحالات.

جغرافيا، تتوزع المقاهي التي تعمل بها هذه الشخصيات بين جندوبة وتونس. أما عن أنواعها، فهي تتراوح بين مقاهٍ شعبية في أحياء شعبية، مقهى حانة، ومقاهٍ راقية.

أثناء الحجر، قمنا بطرح العديد من المواضيع مع هذه الشخصيات، مواضيع مختلفة وفي مناسبات عدّة: العمل، العائلة، الحجر الصحي، الوضع السياسي، الأصدقاء، الصحة، كيفية تمضية أوقات الفراغ، الحالة النفسية، الإجراءات الحكومية، الانتظارات، النظرة لمستقبل ما بعد الكورونا .. من خلال هذه المواضيع المطروحة وإجابات الشخصيات عليها بسؤال ومن دون سؤال أحيانا نظرا لعلاقة الصداقة مع بعض هذه الشخصيات، تمكنّا من نقل القارئ لعالم شخصياتنا من خلال وصف ممتع يتخلله تحليل اجتماعي قد ينجح في فهم تجربة حياتية محددة لهذه الفئة رغم التباعد الجغرافي والاجتماعي للشخصيات المدروسة.

تُفرَد هذا الصفحات في زمن الحجر والكورونا، ممّا يجعلها تتناول البنى المدروسة من علاقات هيمنة وأنشطة نقابية وسوسيولوجيا فردية[6] للشخصيات المدروسة وجماعية لقطاع المقاهي ليس بطريقة جديدة بقدر ما هي مرتبطة بحالة الحجر وإنّما بطريقة سياقية ينزّل فيها الظرف الطارئ (الكورونا) على مجموعة من النواميس مسبقة الوجود في هذا القطاع.

[5] Bernard Lahire, Portraits sociologiques : Dispositions et variations individuelles, (2005).

[6] يمكننّا البورتريه من دراسة الشخصية مفردة عن الجماعة، حيث في هذا السياق ما تعيشه كل شخصية من تجارب اجتماعية وما تحمله من تصوّرات وأفكار عن البيئة التي تتحرّك فيها وتتفاعل معها هو عامل محدد لقدرة الشخصية على الفعل ورد الفعل.

عناصر سياقية

منذ تولي الحكومة الجديدة السلطة، باشرت اللجوء إلى تدابير مالية استثنائية، تشمل تخصيص ميزانية مفتوحة لمكافحة الفيروس. كما أعدت وزارة المالية صندوقاً تطوعياً للإسهام في مكافحة انتشار الفيروس، وحتى الآن جمع الصندوق أكثر من 62 مليون دينار تونسي (7 أفريل 2020)، من المقرر أن يساهم هذا الصندوق في تخفيف آثار الجائحة على الأسر منخفضة ومعدومة الدخل، والأعمال التجارية الصغيرة والمتوسطة.

في 18 مارس 2020، فرض الرئيس حظر تجوال لمدة 12 ساعة يومياً لمواجهة انتشار الفيروس وفي 22 مارس تم توسيع هذا القرار ليمنع التنقل بين المدن ويغلق الحدود البرية والجوية لتونس.

حالة الطوارئ وتوجه رئيس الحكومة إلى البرلمان الذي تردد قبل منحه صلاحيات أوسع و قام بمناورات تضمن مواصلة عمل المجلس وجلساته عن بعد عبر التطبيقات من جهة، والفصل 80 الذي يعطي رئيس الجمهورية صلاحيات أوسع "في حالة خطر داهم مهدد لكيان الوطن وأمن البلاد واستقلالها، يتعذر معه السير العادي لدواليب الدولة" من جهة ثانية، ثم من جهة ثالثة قانون الجماعات المحلية الذي يدعّم اللامركزية ويمنح البلديات صلاحيات في مجالها، خلق تنافسية وتضاربا أحيانا بين السلطة المركزية والسلطات المحلية من جهة (مثل بلدية حمام الشط التي رفضت تحويل أحد النزل إلى مركز حجر صحي إجباري لمصابي الكورونا)، وبين مكوّنات السلطة المركزية نفسها من جهة أخرى حيث ظهر تنافس بين السلطات الثلاث في إدارة الأزمة، هذا الاضطراب كان له تأثير على مدى نجاعة وسرعة تطبيق القرارات ووصول المساعدات لمستحقيها حيث تمر عبر مراكز البريد والعمد ومراكز تجميع المساعدات في المدارس وغيرها.

التنافس بين السلطة المركزية والسلط المحلية واختلاف المناطق ومدى انتشار الوباء فيها يدفعنا أيضا للغوص في جغرافية الحجر واختلافات تطبيقه وطيف (**spectre**) الممكن وغير الممكن في كل منطقة، حيث نعتبر هذا عنصرا مهمّا في تحديد مقدرات الفعل ورد الفعل في زمن الحجر والتفاعل مع مشاكله.

منذ بداية الأزمة، مثّلت المعلومة عائقا أمام أي إجراء يهدف لمكافحة آثار الجائحة على الفئات الأكثر تضرّرا، مزاولي المهن والحرف التي لا يرافقها ضمان اجتماعي لأسباب مختلفة هم تقنيا خارج كلّ الحسابات[7] ببساطة لأن وضعيتهم وعددهم غير معلوم، إذا تحدثنا عن عمّال وعاملات

[7] ليلى الرياحي، الناشطة التونسية وعضو "مجموعة العمل من أجل السيادة الغذائية"، أشارت في أحد مناشيرها على وسائل التواصل الاجتماعي إلى أن حزمة الإجراءات المزمعة أولا لا تشمل كل اليد العاملة المنخرطة في القطاع الرسمي كما انها تهمل تماما الناشطين في القطاع غير الرسمي

المقاهي والحانات، فإن أغلبهم لا ينخرطون في منظومة الضمان الاجتماعي لأنهم في الغالب ليسوا أجراء قارّين ويعملون بمرونة بين عديد من المقاهي وفي أوقات مختلفة، شحّ المعلومة دفع الدولة إلى الاعتماد على العمد في عماداتهم لتحيين قائمة المستحقين للمساعدة ولهؤلاء العاملين أنفسهم ومؤجريهم ليتقدموا بطلب مساعدة من السلطات، ونظرا لعدم إمكانية السماح بالتجمعات والاكتظاظ عمدت الدولة إلى محاولة جعل العملية ممكنة عن بعد عن طريق الهاتف، ممّا زاد في صعوبة المهمة وتأخيرها، حيث اضطرت وزارة الشؤون الاجتماعية مثلا لرقمنة سريعة لقرابة الـ 630 ألف المتمتعين ببطاقات علاج بالتعريفة المنخفضة (دفاتر صفراء).

الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي المنضوية تحت لواء الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية هي إحدى المنظمات النقابية الممثلة لقطاع المقاهي وتدافع على مصالح أصحاب المقاهي والعاملين فيها، الغرفة تنقسم إلى غرف جهوية في كل ولاية وقد خاضت طوال فترة الحجر وبعده العديد من التحركات منها وقفة احتجاجية أمام المقر الرئيسي للاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية في حي الخضراء في 19 ماي 2020، هذه الوقفة التي سبقتها العديد من البيانات والتصريحات لرؤساء الغرف الجهوية لأصحاب المقاهي ورئيس الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي تأتي على خلفية عدم تمتع عاملي وعاملات المقاهي بالمنح الحكومية التي وصفتها الغرفة بالـ"زهيدة"، إضافة إلى عدم تمتع أصحاب المقاهي بالقروض التي وعدتهم بها الحكومة من أجل مجابهة آثار الكورونا بسبب الشروط "التعجيزية" و "المجحفة" على حد تعبير رؤساء الغرف، في إحدى البيانات الصادرة عن الغرفة الجهوية ببن عروس، حيث تشكى رئيس الغرفة من غياب دعم جامعة المهن لهم طيلة فترة الحجر.[8]

في حين تدافع الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي بالأساس على مصالح مالكي المقاهي أوّلا ثم سياقيا على العاملين في المقاهي نظرا للوضعية التي يمر بها هؤلاء أثناء فترة الحجر، فإن "نقابة قطاع المقاهي والمطاعم والحانات والمؤسسات المشابهة لها" المنتظمة داخل الجامعة العامة للصناعات الغذائية والسياحة والتجارة والصناعات التقليدية تحت لواء الاتحاد العام التونسي للشغل من المفترض أن تكون المنظمة المهتمة بشأن العاملين في المقاهي أساسا والمدافعة عن حقوقهم في ظل غياب عقود العمل غالبا وغياب التغطية الاجتماعية من تأمين على المرض

الذين يمثل قرابة ال54% من الاقتصاد التونسي. من غير المشمولين بهذه التدابير ايضا، العمال الموسميون والمؤقتون، عمال العقود الاعداد للحياة المهنية، العمال اليوميون مثل عاملي المقاهي.

[8] بيان الغرفة الجهوية لأصحاب المقاهي بن عروس كمثال، صدر في 15 ماي 2020 ويحمل الدولة الوضع المتأزم الذي تعيشه المقاهي في ظل الإهمال و "سياسة اللامبالاة والمغالطة" التي اعتمدتها الدولة إزاءهم حيث عمدت لقطع موارد رزقهم والترويج لإجراءات داعمة للقطاعات المتضررة دون تمكينهم منها فعليا على حد نص البيان.

وتقاعد، هذه المنظمة تبدو غير فعّالة وغير قادرة على استقطاب عاملي المقاهي ولا على تنظيم صفوفهم، حيث نلاحظ غيابا شبه كامل لهذه المنظمة.[9]

في هذا السياق المضطرب سياسيا والموسوم بالتنافس بين السلط المركزية بين بعضها وبين السلطات المحلية، وفي سياق يوجد فيه الآلاف خارج حسابات الدولة، وعدم تمتعهم بالإجراءات التي وعدت بها الحكومة وغياب الدعم النقابي، يجد عمال وعاملات المقاهي أنفسهم في وضع لا يستطيعون فيه العمل وأمل في الحصول على مساعدة يتضاءل يوميا نظرا للصعوبات والتأخيرات.

جندوبة، من مارس إلى ماي

فيروس كورونا هو جائحة لا تعترف بالحدود والتأشيرات، ولعلّ أوّل ما سببته هذه الجائحة هو غلق هذه الحدود بالذات حيث لمدة قرابة الشهرين أصاب العالم شلل في حركة التنقل بين البلدان وبين المدن في نفس البلاد. إنّها العولمة القاسية الذي تجعل شابا يجلس تحت حائط مقهى "أرابيسك" المغلق في جندوبة يقول: "يأكل خفاشا في الصين فنجلس نحن تحت حيطان المقاهي" مازحا ساخطا في أحد أيام شهر أفريل.

رغم إغلاق المقهى، واصل روّاده اللقاء تحت حائطه وقبالته في الأوقات المعتادة صباحا ومساء قبل حظر الجولان. الكلّ يستشف أثر الفراشة في جندوبة، الولاية لم تعش وقع الكورونا كوباء لأنها كانت خالية من الحالات النشطة طوال فترة انتشار الفيروس، لكنّها عاشت وقع الحجر الصحي وحظر الجولان تماما مثل باقي الولايات، ولو أن الحجر لا يمكن الحديث عنه كتجربة جماعية متطابقة نظرا لاختلاف طريقة تطبيقه ومعايشته من منطقة لأخرى، إلاّ أنّه يبقى تجربة مشتركة عاشت على وقعها تونس لمدة تناهز الثلاثة أشهر.

دراسة حالة: عاطف

يدخّن سيجارتين أمام الستار الحديدي المسبل على باب رزقه، المقهى المغلق منذ قرابة الشهر، يراقب الشارع الصباحي الفارغ بعين حذرة، ما إن يتأكد من غياب "الأعين"، ينسلّ إلى المقهى، يعدّ العشرات من الكؤوس الكرتونية، يملأها بالقهوة، يرصّفها بعناية في سطل من البلاستيك، يحكم إغلاق السطل، يعلّقه بعناية على مقبض دراجته الهوائية، يجاهد من أجل الحفاظ على توازنه،

[9] غياب عن التحركات، غياب حتى على وسائل التواصل الاجتماعي حيث يعود أحدث منشور على صفحات هذه النقابة القطاعية لسنة 2018، وبينما لاحظنا الحضور الإعلامي لممثلي غرفة أصحاب المقاهي حيث قام العديد من رؤساء الغرف الجهوية ورئيس الغرفة الوطنية بتدخلات اما في الإذاعات أو في البرامج التلفزية أثناء فترة الحجر، تبدو نقابة قطاع المقاهي والحانات مغيّبة تماما.

ليس خوفا من السقوط، بل خوفا من انسكاب القهوة من الكؤوس المرصفة، ينطلق في رحلة يكرّرها عدة مرات كل يوم : يوزّع القهوة على المجموعات البشرية تحت الحيطان وفي الأزقة، "البعض منهم يطلب توصيلها حد منزله، هم متعودون على قهوتي، حتى أن الوباء لن يمنعهم من الحصول عليها." عاطف، ذو الثلاثين ربيعا، كان يعمل في مجزرة، ثم قرر الابتعاد عن الدماء واللحوم، عمل عدة مهن هنا وهناك، قبل أن يستقر على عمله في مقهى الحي، منذ سنتين.

على عكس العديد من المهن المنتظمة[10] التي تختلف درجة تأثرّها بالحجر الصحي حسب القطاع، فإن عاطف عاملٌ يومي، وهذا يعني ببساطة أنه إن لم يعمل اليوم، فلن يتحصل على قوت يومه. الكورونا "كارثة ومصيبة" في هذا القطاع على حد قوله، بالنسبة له كعامل يومي في مقهى، قرار الحجر هو حكم بالجوع والخصاصة، فبينما لا تنقطع جرايات وشهاري الموظفين الحكوميين والموظفين في القطاع الخاص الذين يتمتعون بدخل شهري، ففي حالته وحالة الآلاف مثله التوقف عن العمل يحمل مضاعفات تغفل عنها السلطات التي وضعت خطة لمساعدة المتضررين من الحجر دون آليات وحلول لمن هم في حالة عاطف.

المقهى الذي يعمل فيه عاطف هو مقهى صغير، لا يعمل به سوى عاطف كنادل وعامل آخر وراء النضد يعد المشروبات، بينما حضور مؤجرهم دائم، منذ بداية الأزمة، أوضح لهم المالك بأنه لن يستطيع مساعدتهم ماليا طوال فترة الحجر، نظرا لأن عاملي المقهى يتحصلون على أجر يومهم من مداخيل اليوم نفسه

في العادة، في آخر الليلة، ينزل عاطف الستار الحديدي مع مغادرة آخر زبون، ينطلق في ترصيف الكراسي وكنس المقهى، بينما يستمر العامل الآخر في غسل الكؤوس وترصيفها وتنظيف آلة القهوة وأباريق الشاي وإعادة ملء المبرّد بقوارير المياه والمشروبات الغازية، تستغرق هذه المهمة اليومية قرابة الأربعين دقيقة، ينتبذ خلالها مؤجرهم ركنا قصيا في المقهى، يأخذ الكراس الذي يسجل فيه العامل وراء النضد طلبات الزبائن التي أعدها وجراب عاطف الذي يجمع فيه أموال الزبائن، يعدّ النقود، يقارن المداخيل بما تشير له الكراس من مبيعات، ثمّ "يحاسب" عامليه، ويعطيهما أجرة يومهما، عادة 15 دينارا، في صورة ما كان كل شيء على ما يرام، في صورة نقص ما في الجراب من أموال عمّا كتب في الكراس، تخصم الدنانير الناقصة من أجر عاطف، في صورة

[10] هي مهن يدفع العاملون فيها الضرائب والمساهمات الاجتماعية ويتمتعون بالضمان الاجتماعي، على عكس المهن غير المنتظمة التي تكون عادة موسمية ودون عقود ولا يدفع ممتهنوها الضرائب والمساهمات.

نقص ما في الكراس عما تم استعماله من مواد مثل القهوة أو المشروبات الغازية، تخصم النقود المفقودة من أجر العامل وراء النضد.

لا أحد من العاملين في المقهى يعمل بموجب عقد واضح الملامح، هذا يمنح مشغّلهما مزيدا من الحرية في تقرير عقوبات الخصم من الأجرة اليومية ولا يجعله مضطرّا لتحمّل تكاليف الضمان الاجتماعي أو التقاعد للعاملين في المقهى.

في فترة التدرج في الحجر الصحي، لم يتأثر العمل كثيرا، واصل الزبائن التردد على المقهى لأخذ قهوة محمولة في كأس كرتوني حتى وإن لم يستطيعوا البقاء في المقهى فقد كانوا يبقون في محيط المقهى، في تجمعات صغيرة وقوفا وجلوسا، غير أن هذا لم يستمر مع بداية الحجر الشامل وأمر إغلاق المقاهي وتكثيف الرقابة عليها. فجأة انقطع حبل النجاة القصير، عدم تمكن المقهى من بيع مشروباته حتى للمارين وأمر إغلاقه جعل مداخيل المقهى تنزل إلى الصفر، أي أن العاملين لن يتحصلا بعد الغلق على أية أجرة يومية.

عاطف متزوج و له بنتان، زوجته تعمل في أحد محلاّت بيع اللحوم البيضاء (الدواجن)، واصلت العمل أثناء الحجر بنفس الأجرة اليومية، لكن ما تتحصل عليه من أجر لم يكن كافيا لتغطية مصاريف الأسرة الصغيرة، "توقفت عن العمل قرابة شهر، فلم أستطع حتى تغطية مصاريف سجائري، في البداية حاولت التخفيض في عدد السجائر، ثمّ لم أستطع شراءها، عمدت إلى الاستدانة من الكشك، ثم امتلأت الصفحة في كرّاس الكريدي" كلّ هذا كان قبل رمضان، ذات صباح في أفريل، قبل رمضان، استوقفني مشهد عاطف على دراجته، في أول النهج، يبيع قهوته على ناصية الطريق لكلّ مجموعة تستوقفه، اقتربت منه، أخذت قهوة في كأس كرتوني، كانت أول قهوة لم تعدّ في المنزل منذ قرابة الشهر، ثم أعلن عاطف بأنه سيبيع القهوة هكذا طوال اليوم قبل رمضان، على أن يواصل بيعها في رمضان ليلا، "ربما لن نتمكن من قضاء رمضان بطريقة عادية، لكننا على الأقل لن نحرم من القهوة المعتادة"، يقول أحد الواقفين.

بالفعل، واصل عاطف العمل خلال رمضان، وكنت أشتري القهوة منه تقريبا كلّ ليلة، في محادثاتنا القصيرة، أخبرني بأنه لم يرض بالبقاء في المنزل بينما تنزاد صفحات أخرى في كرّاس ديونه، وأنه مع قدوم رمضان وعدم استطاعته حتى شراء مستلزمات بيته، قام بالاتفاق مع صاحب المقهى الذي تربطه به علاقة صداقة وقرابة عززتها وضعية الحجر، أن يستغل عاطف المقهى بداية فقط لإعداد القهوة وإخراجها لبيعها، ثم مع الخوف من الأعين وما قد ينجر عنها من خطايا على المحلّ قام عاطف بنقل آلة القهوة إلى منزله الخاص في رمضان ليواصل عمله من هناك تفاديا لمشاكل مع السلطات.

هذا العمل الذي قام به عاطف، برزّه بأنه لم يكن بأية حال من الأحوال سينتظر منحة "موعودة" من عند الدولة، منحة لم يتحصل عليها رغم كل الإحصائيات التي تتداولها الأخبار ويذكرها رئيس الحكومة في خطاباته ورغم تقدم صاحب المقهى بطلب مساعدة لخلاص مستحقات العاملين لشهري مارس وأفريل التي وضعتها الدولة.[11]

عاطف هو أحد المعنيين بهذه المنح، لكنه لم يتمتع بها، ولم يسعفه الحظ أن ينتظر إجراءات قد تأتي متأخرة وقد لا تأتي، فعمد إلى كسر الحجر الصحي وإيصال القهوة إلى الزبائن، في عكس لمفهوم المقهى بما هو مكان نقصده ليس فقط لتناول القهوة بل كنشاط اجتماعي. تمكن عاطف من كسر الحجر ومواصلة العمل كان ممكنا في سياقه لأن ولاية جندوبة كانت بعيدة عن الأرقام المتصاعدة بشكل يومي في تونس والعالم ولأن الخروج إلى الشوارع لملاقاة الزبائن كان ممكنا نظرا لضعف الرقابة من جهة وتسامح قوات الأمن مع جائبي الشوارع من جهة أخرى. هو فعل في حدود إمكانية الفعل (**capacité d'action**)، حيث لاحظنا في فترة الحجر تنوع أشكال الفعل الاحتجاجي في فترة الكورونا [12]ودخول تغيّرات على علاقة الهيمنة بين العاملين والعاملات في المقاهي والحانات ومالكيها. التباعد الاجتماعي والحجر هو أكثر من عزل في المنزل بالنسبة للعمّال، بل هو تفريد لعلاقاتهم مع أرباب العمل حيث أن التواصل بينهم يصبح تواصلا بشكل فردي، يمكن ملاحظة هذا في حالة عاطف، حيث أنّ نوع علاقته مع مؤجره جعلت كسره للحجر واستغلال آلة القهوة من أجل مواصلة العمل من المقهى المغلق في مرحلة أولى ثم من منزله في مرحلة ثانية أمرا ممكنا، في حين لم يقم العامل الآخر في المقهى من التمتع بنفس القدرة على كسر الحجر وقام بالالتزام بالحجر.

في نفس هذا السياق الذي نراه في جندوبة، لم تخل وسائل التواصل الاجتماعي من بيانات ومنشورات لعاملين آخرين في المقاهي وبالأخص في تونس العاصمة، حيث تختلف الحيثيات من ناحية مدى نجاعة الحجر وضرورته ومدى حرص السلطات على تطبيقه وذلك إما بتسليط العقوبات المالية والجزائية (الغلق النهائي للمقاهي المخالفة للحجر([13] على المحلات وبمنع التجوال

[11] في 22 أفريل وخلال نشرة الأخبار، بثت القناة الوطنية تقريرا عن مشاكل المقاهي في أريانة، كل المتدخلين أشاروا إلى عدم جدوى وغياب الإجراءات الهادفة للحفاظ على مواطن الشغل في المقاهي ومساعدة أصحابها على تحمل النفقات أثناء الإغلاق، وطالب رئيس غرفة أصحاب المقاهي بأريانة الدولة بمنح أصحاب المقاهي قروضا لمجابهة الأزمة، في نفس السياق، طالب رئيس الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي فوزي الحنفي في تصريح لإذاعة موزاييك اف ام الحكومة بالتسريع في إسناد قروض لأصحاب المقاهي حتى يتمكنوا من تسديد مستحقات شهري مارس وأفريل من معاليم كراء وخلاص أجور، ورغم كل هذه الأصوات المطالبة بحلول، بقيت نجاعة تطبيقها مختلفة من مكان لآخر ورغم أن قطاع المقاهي مشمول بمنحة ال 200 دينار، إلا أنهم لم يتمتعوا بها حسب تصريح نائب رئيس الغرفة الوطنية للمقاهي لإذاعة موزاييك اف ام في 26 أفريل 2020.

[12] وقفة احتجاجية بتاريخ 19 ماي دعت اليها الغرفة الجهوية لأصحاب المقاهي ببن عروس امام مقر الأوتيكا احتجاجا على وضع المقاهي المتردي اثناء الحجر وغياب اجراءات الدولة والمساندة النقابية للمنظمة.

[13] قامت وحدات الحرس الوطني مثلا، حتى تاريخ 6 أفريل، بتحرير 260 مخالفة ومحاضر عدلية في تتبع أصحاب المحلات المخالفة لقرارات الغلق، وغلق 200 محل أغلبها من المقاهي.

في نفس السياق قامت العديد من البلديّات بإصدار قرارات بلدية تقضي بغلق المطاعم والمقاهي، نذكر أيضا قرارات الغلق الصادرة أيضا عن والي بنزرت في حق 3 مقاهي وغيره من الولاة.

والتجمعات في محيط المقاهي مما يجعل أي محاولة للوصول للزبائن شبه مستحيلة وصعبة وغير مربحة أساسا.

هذه الاختلافات بين جغرافية الحجر وأنواع المقاهي (شعبية أم لا) والحانات تجعل الممكن وغير الممكن في إطار الحجر يختلف من مكان إلى مكان ومن عامل إلى آخر، وهو ما سنحاول دراسته من خلال البورتريهات الموالية.

تونس العاصمة، ماي وجوان

أثناء الحجر، على وسائل التواصل الاجتماعي، شارك عماد العامل بمقهى في تونس العاصمة، خبرا مفاده أن صاحب منزل يكتريه عامل وزوجته العاملة معه في نفس المقهى في البحيرة طرد الزوجين من المنزل الذي يكتريانه في سيدي حسين منذ أشهر، بسبب عدم قدرتهما على دفع مستحقات الإيجار. الخبر المنشور على الفايسبوك حصد أكثر من 500 تفاعل.

دراسة حالة: عماد

لا يكاد يستقر في مكان واحد أثناء العمل، الصينية (الطبق) في يده والجراب القماشي الأسود يحزِّم خاصرته، بين طقطقة القطع النقدية المعدنية وقهقهته البسيطة، يمكن أن ترى شخصية تستحق المحادثة، شخصية تخفي وراءها الكثير من الدعابة، تعبا خجولا وراء الابتسامة المعهودة.

عماد، ذو الستة والثلاثين سنة، أصيل ولاية القيروان، أعزب. يعمل في مقهى الراشدية في لافايات منذ قرابة الخمسة سنوات، تقلب بين العديد من الوظائف قبل أن يستقر على هذا العمل. المقهى القابع في نهج هادئ وراء غريبة (معبد يهودي) لافايات مع المطعم التابع له يوفر موطن شغل لسبعة عاملين قارين.

هاتفته مرتين أو ثلاثة أثناء الحجر، في مرة منها، علّق على خبر طرد الزوجين قائلا بأنه لا يفهم كيف يمكن أن يتزوج عامل المقهى، في تونس، "الجرناطة" أي أجرة اليوم أقصاها 20 دينارا، وهي مداخيل تجعل التفكير في الزواج مهمة صعبة.

عماد، طوال فترة التوقف عن العمل لم يتحصل على المنحة الحكومية الموعودة رغم ملئه لاستمارة مساعدة، ولم يتحصل سوى على مقدار راتب شهر واحد. في الأيام الأولى اضطر إلى التداين من جيرانه، الذين أظهروا لحمة وتضامنا.

مع تواصل التمديد في فترة الحجر التي فاقت كل التوقعات، بحث عماد عن عمل آخر حتى يعيل نفسه، فلجأ إلى إحدى المهن التي امتهنها في السابق: طلاء المنازل.

عمل دهّانا لمدة تناهز الأسبوع، وتمكن بهذا الأجر أن يعيل نفسه حتى العيد، ثم عاد لعمله في المقهى بعده. عندما تحدثنا على ما بعد الكورونا، أخبرني بأنه يفكّر جدّيا في الهجرة، ربما إلى الجزائر أو المغرب بداية، بالنسبة له، الكورونا كانت كاشفا لمدى هشاشة وضعه الاجتماعي المحكوم بعمله في المقهى الذي يمكن أن ينتهي في أية لحظة الآن نظرا لتفكير صاحب المقهى في التخفيض في عدد العاملين.

عماد يعمل عادة في المناوبة المسائية، حيث تمتد ساعات عمله من الثانية مساءً حتى العاشرة مساءً في الشتاء، وحتى منتصف الليل صيفا، بين الثمانية والعشرة ساعات يقضيها واقفا بين طاولات الزبائن أو خلف آلة القهوة، ليتحصل في نهاية اليوم على عشرين دينارا.

> عماد العامل ستة أيام في الأسبوع وأحيانا سبعة، لا ينفك يمزح بشأن مظهره، حيث رغم قضائه أغلب ساعات يومه الصباحية في الفريب (ملابس مستعملة) وغيره مقتنيا الثياب، لا يجد وقتا حتى لارتدائها نظرا لطول ساعات العمل، حتى أنه في أوقات فراغه يقصد المقهى نفسه الذي يعمل فيه لتمضية الوقت، وكأن حياته سلبت من أي معنى آخر.
>
> "خلال الحجر، حاولت البحث عن معنى آخر لحياتي، زرت القيروان مجدّدا، بمناسبة العيد، قررّت قضاء بعض الأيام، غير أنه منذ فتح المقاهي مجددّا، قفلت راجعا إلى تونس، لألتحق بعملي".

علاقة عماد بمالك المقهى كانت متوترة قبل الكورونا، والجفاء بينهما زاد أثناءها، حيث مثل الحجر فرصة لصاحب المقهى أولا لتجديد المكان وإدخال تحسينات عليه، وثانيا لإعادة التفكير في طاقم العملة. تفريد العلاقة بين العرف والعامل من جهة، وبين العاملين بين بعضهم من جهة أخرى، كان أسهل خلال الحجر. حيث كان المؤجر يتواصل مع من يريد ويتحاشى من يريد، وفي نفس الوقت تعرضت اللحمة بين العاملين الذين كان يجمعهم نفس مكان العمل إلى تصدّع غذّاه المجهول الذي تعد به الكورونا، الحفاظ على موطن الشغل في ظل شبح الأزمة وأخبار ارتفاع عدد فاقدي العمل والمحالين على البطالة جعل ما كان يجمع العمال في المقهى من تضامن جفاءً يجعل مهمة المشغّل أسهل. الكورونا بما هي طارئ ساهمت بشكل لافت في تغيير موازين القوى في علاقة الهيمنة بين المشغّلين والعمّال حيث استغلّ العديد منهم الأزمة للقيام بتسريح المتعاقدين بداية والتخفيض في العاملين بالاستغناء عن الخدمات تدريجيا بتعلّة استحالة المحافظة على مواطن الشغل في مثل هكذا

أزمة. هذه العلاقة المتوترة بين عماد ومشغّله هي ترجمة لمخلفات الأزمة ووقعها على علاقات الشغل بصفة عامة، قد يفقد عماد عمله، قد يهاجر، قد يواصل العمل من أجل بشائر غد أفضل، لكن بالتأكيد وقع الحجر الصحي كتجربة اجتماعية سيكون له أثر دائم عليه كعامل مقهى.

غير بعيد عن مقهى الراشدية في لافايات، تتركّز المقاهي والحانات الأكثر شهرة في العاصمة: مقاهي وحانات شارع الحبيب بورقيبة.

مقهى حانة لونيفار مغلق منذ الثاني والعشرين من مارس، بادر رواده منذ 23 مارس بإنشاء مجموعة على الفايسبوك بلغت قرابة الألف عضو، مجموعة "أصدقاء وصديقات مقهى لونيفار" مثّلت فرصة لمرتادي المقهى والحانة للتفاعل افتراضيا بين بعضهم ومع عاملي المقهى طوال فترة الحجر.

مؤطّر 2: مقهى حانة لونيفار

منذ 1948، يقبع مقهى حانة لونيفار، محاذيا لقاعة سينما البرناس (**Le Parnasse**). منذ أكثر من سبعين سنة، يجذب المقهى نخبة من الفنانين والمثقفين اليساريين، ومثل بقية محلّات شارع الحبيب بورقيبة، تم حصر "الطبرنة" في الداخل لتبقى مصطبة المحل (**terrasse**) مقهى وداخله حانة. مؤسس المقهى وصاحبه الأصلي، جاكوب طرطور، تونسي يهودي من حلق الواد وكان مشرفا على السوق البلدية هناك وله مصالح ومساهمات في عديد المقاهي والحانات، كان مالك المقهى حتى سنة 1964 سنة سفره لفرنسا. المقهى والحانة كان قبلة للطلبة التونسيين واليساريين تاريخيا مما يفسّر نوعية زبائنه حتى اليوم من يساريين وتقدميين، حيث يمثّل هذا المقهى ملاذا تاريخيا للقاءات والنقاشات خاصة منها الحزبية التي لا تستوعبها مقرّات الأحزاب والمنظمات.

تاريخ المقهى، موقعه، نوع الزبائن المترددين عليه، كلّها عوامل تؤخذ بعين الاعتبار في دراسة العاملين فيه، حيث يتم اختيارهم على أسس تتماشى مع هذه العوامل كما يكتسبون في وقت لاحق مؤهلات اجتماعية (معجم لغوي، طرق حلّ نزاعات، علاقات، هيئة، أفكار ..) تمكنّهم من الانخراط في علاقات مع الزبائن، هذه المكتسبات تأتي على إثر تنشئة اجتماعية[14] (**socialisation**).

[14] التنشئة الاجتماعية عند اميل دوركهايم هي استبطان ما هو اجتماعي في علاقة الفرد بالمجتمع. هنا، علاقة عامل المقهى بالمجتمع المصغّر المكون من الحرفاء، الزملاء، المشغّل/ الوكيل، تنتهي بالضرورة بتنشئة اجتماعية تمكنه من مواصلة العمل في هذا المجتمع، او مغادرته في حالة الفشل.

دراسة حالة: ماهر

مرتادو حانة لونيفار أو المقهى يعرفون ماهر، تربطه علاقة وطيدة مع أغلب زبائن المقهى الذي يجمع كافة أطياف اليساريين. ماهر نفسه، كان منتظما في حزب العمّال، بالنسبة له زبنائه هم أكثر من كونهم زبائن، هم رفاقه. إذا جلست بمقهى لونيفار في السابق، فلن يفوتك مثلا أن ماهر يعرف كل أحوالهم أو أنه مثلا يتدخّل ليحلّ مشكلة ما سمعها تطرح في إحدى طاولات المقهى، حيث لا ماهر يتحرج من التدخل الذي يحمل اعترافا ضمنيا باستراقه للحديث ولا الزبائن يتحرجون من مفاتحته بالمشكلة والبحث عن المعونة منه.

ماهر، العامل في لونيفار، يبلغ من العمر 34 سنة، يوقع كل منشوراته على وسائل التواصل الاجتماعي بـ"عامل من أجل غد أفضل".

"حكايتها حكاية"، علّق ماهر ضاحكا على العبارة التي يستعملها دائما عندما سألته عن القصة وراءها، ثم أخبرني بأنه يعمل من أجل مستقبل أفضل لنفسه ولعائلته، غير أن هذا المستقبل الأفضل صار يبدو بعيد المنال في زمن الكورونا.

ماهر يقيم رفقة والدته المريضة وأخ له في معتمدية واد الليل التابعة لولاية منّوبة، منذ إغلاق المقهى، خيّر ملازمة البيت والاعتناء بصحة والدته رافضا كسر الحجر خوفا عليها ومتحملا مسؤولية عائلته، لا مكان للاستهتار في زمن الأوبئة. عندما بلغه أن الحكومة تعتزم مساعدة الفئات المتضررة من الكورونا، قام بطلب المساعدة من السلط المحلية وذلك بملأ استمارة مساعدة ال200 دينار، لم يتحصل عليها، مثل بقية المعطلين عن العمل بواد الليل.

طوال فترة الكورونا، لم يكن للعائلة المكونة من ثلاثة أفراد أي دخل، سوى تمتع أمه المريضة بمساعدة قدرها 190 دينار وأخيه الحامل لبطاقة العلاج الصفراء بمساعدة قدرها 50 دينار. كان لابد من التداين، من أجل توفير مستلزمات المنزل والدواء لوالدته المريضة، وهو ما فعله مرّة، حيث اضطر للتنقل حتى باب الخضراء للاستدانة من صديق، ومنعته الشرطة من ركوب الحافلة نظرا لغياب الترخيص بالتنقل رغم أنه فسّر وضعيته الحرجة، فقام بالعودة حتى واد الليل على الأقدام.

عمّال مقهى لونيفار لم يتوقفوا عن التواصل بين بعضهم في فترة الحجر، ونظرا لقلّة ذات اليد وضعف الحيلة، قاموا بالاتفاق على التواصل مع صاحب المقهى ليساعدهم.

صاحب المقهى، كان قد ساعد كافة العاملين بمبلغ 200 دينار منذ العشرين من مارس قبل الغلق، ثم مبلغ إضافي قدره 150 دينارا للعازبين من العمال و 200 دينار للمتزوجين في نصف شهر أفريل، ومبلغ آخر إضافي في رمضان.

أمّا عن كيفية حصول ماهر على هذه المبالغ، فقد قال بأن صاحب المقهى قام بالتنقل حتى منزله في ولاية منوبة.

على عكس عاطف وعماد، ماهر لا يشتغل بأجرة يومية بل يتحصل على راتب شهري، ومع تواصل المساعدات من قبل مشغّله كان ماهر يبدو أكثر اطمئنانا وفي وضعيّة مريحة - رغم اضطراره مثلا للتخلي عن بعض حاجياته مثل التدخين - أكثر من عاطف الذي اضطر لكسر الحجر ومواصلة العمل بطريقة سرية أو عماد الذي اضطر لمزاولة عمل آخر بطريقة وقتية من أجل القوت.

جغرافية الحجر أيضا، الذي تختلف حدّته وتطبيقه من مكان إلى آخر مثلما يختلف مدى التقيد به من مكان إلى آخر: مقهى حانة لونيفار الموجود في شارع الحبيب بورقيبة يمثل حالة مستحيلة من ناحية مواصلة العمل بأي شكل من الأشكال نظرا لموقعه في وسط العاصمة وشدة الرقابة عليه، زد على ذلك محل سكنى ماهر في واد الليل من ولاية منوبة الذي يفرض عليه التنقل في ظروف لا تسمح بذلك، على عكس المقهى الشعبي الذي يعمل به عاطف مثلا في جندوبة والذي أتاح له التملص من القيود التي يفرضها الحجر.

عنصر تحليلي

ما يمكن استخلاصه من دراسة الحالات الثلاثة المذكورة، أن الطاغي في حالة عاملي المقاهي هو غياب العقود وبقاء هذه الفئة في حالة شغل غير منظّم لعدّة عوامل، لعلّ أبرزها غياب نقابة منظمة للقطاع ومهتمة بالدفاع عن العاملين فيه في وجه نقابة قوية تدافع على مصالح أصحاب المقاهي (الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي التابعة للأوتيكا **UTICA**) متعللة بالحفاظ على مواطن الشغل رغم ما يعيشه العاملون من غياب تغطية صحية وضمان اجتماعي وتقاعد، هذا التقاعس والتغافل على تنظيم القطاع في ظل غياب إرادة الدولة وغياب نضالات العاملين جعل علاقة المشغّل بالعاملين علاقة مختلة من ناحية موازين القوى حيث تغيب الوسائل التعديلية (تنظّم نقابي، تدخل تنظيمي تعديلي من قبل الدولة..) لتترك العاملين محلّ استغلال ودون حقوق اجتماعية.

هذا التواطؤ الذي يبقي أغلبية العاملين في القطاع غير المنتظم (**informel**) سببّ أزمة على مستوى التوثيق حيث عجزت الدولة بداية على معرفة الأرقام الحقيقية للذين أحالتهم قرارات الحجر على البطالة الإجبارية المؤقتة أو الدائمة، ثم عجزت على توفير الدعم المادي الموعود لهذه الفئة الهشة. على مستوى آخر، غياب أي نوع من التأمين والضمان الاجتماعي نتيجة للانخراط في هذا النوع

من التشغيل جعل وضعية العاملين في القطاع أسوأ نظرا للبطالة التي رافقها غياب أبسط الحقوق الاجتماعية مثل العلاج والقروض الاستهلاكية.[15]

من جهة أخرى، نقف على اختلاف ردود الفعل للشخصيات المدروسة: كسر الحجر الصحي والعمل خفية، اللجوء إلى مهنة مؤقتة، الالتزام بالحجر والركون إلى المنزل. ما يمكن ملاحظته في مستوى أوّل، أن المقدرة على الفعل يختلف طيفها في حالاتنا حسب الصورة الاجتماعية للشخصيات وحسب الجغرافيا والإطار الذي توجد فيه كل شخصية، هذان العاملان يتأثران ببعضهما تأثيرا متبادلا، حيث يؤثر الإطار على الصورة الاجتماعية وتؤثر فيه هذه الأخيرة بصفة عكسية من خلال تجاوب الشخصية وفعلها في محيطها في نفس إطار الفعل الذي يحدد كما قلنا الممكن وغير الممكن. هذه الصورة الاجتماعية تبنيها بالضرورة التجارب الحياتية ومراكمتها، مثل المهارات المكتسبة (مثلا القدرة على أداء أعمال أخرى مثل طلاء المنازل) وتأطير الواقع من وجهة نظر الشخصية المعنية به (مثلا في حالة ماهر، انتماؤه السابق لحزب سياسي يساري ونوعية الزبائن الذين يترددون على المقهى يجعل تأطيره للواقع وفهمه لمقدرات فعله متأثرا بشكل كبير بما يتداول في ذلك الإطار من وعي مجتمعي وسياسي أعطى أولوية لتطبيق الحجر واحترامه).

خـــــاتمة

منذ بداية الأزمة، بقيت البشرية مترقبة لنهاية مؤكدة لوباء أخضع لأول مرة البشرية إلى حجر ذاتي وإجباري في المنازل. هذا الترقب يكاد لا يخلو من اليقين حول حتمية انتهاء الكورونا وانتصار البشرية التي لا تعرف الخسارة. لكن نعوم تشومسكي الذي يخفف من هول الأزمة يشير إلى أنّها مؤقتة ولا تعدو أن تكون جزءًا صغيرا من الأزمات المقبلة مثل الاحتباس الحراري، أزمات حتمية لأن ما يحركها هو الداء الحقيقي: الرأسمالية المتوحشة التي تهتم بمنطق الربح وحده.

إنها نفس هذه الرأسمالية التي دفعت الدولة للتخلي على دورها الاجتماعي والاكتفاء بتسيير ورعاية مصالح الرأسماليين، متسببة في تدهور قطاع الصحة وقطاع البحث العلمي وتقهقره. علاقة الدولة بالعلم، التي يصفها آلان باديو بالضعيفة، تترك اليوم العالم يترقب لقاحا قد يأتي من مؤسسة خاصة، طارحا مشاكلا من قبل إتاحته للجميع، مما يعمق مشاكل البشرية جمعاء.

في هذا السياق السريالي الذي تصيبه حمّى الرأسمالية والعولمة القاسية التي تكشف اليوم ارتباط مصائر البشرية بشكل غير مسبوق، يجد المليارات أنفسهم خارج الحسابات في أحلك الفترات. عاملو المقاهي والحانات ليسوا أبدا بمعزل عن هذا السياق، حيث غياب التنظيم النقابي

[15] لمزيد التعمق في الأرقام والاحصائيات حول الاقتصاد غير المنتظم في تونس راجع هذا المقال -https://www.tanitjobs.com/blog/158/l emploi-informel-en-Tunisie.html
[consulté le 19 Mai 2020]

والتواطؤ بين السلطة والمشغّل أوصلهم لوضعية كانت سلّطت عليها أزمة وباء كورونا الضوء كاشفة مدى هشاشة هذه الحياة المهنية ومدى عدم قدرة ورغبة الدولة للتدخل. ربّما تنطلق الدولة في خطاب رسمي يفيد هزيمة الكورونا وبداية الانتعاش الاقتصادي في "ما بعد الكورونا"، لكن ما لم ترافق إجراءات دعم المؤسسات والضخ في ميزانيتها من أموال القروض إجراءات أخرى تضمن تنظيم القطاع غير الرسمي ومحاولة إدماجه في الاقتصاد الرسمي لتفادي مثل هذه الأزمات وضمان حقوق العاملين في هذا القطاع، تبقى مرحلة ما بعد الكورونا مجرّد مصطلح لألوف مؤلفة من فئات هشة دائما ما تجد نفسها وحيدة في فوهة مدفع الأزمات.

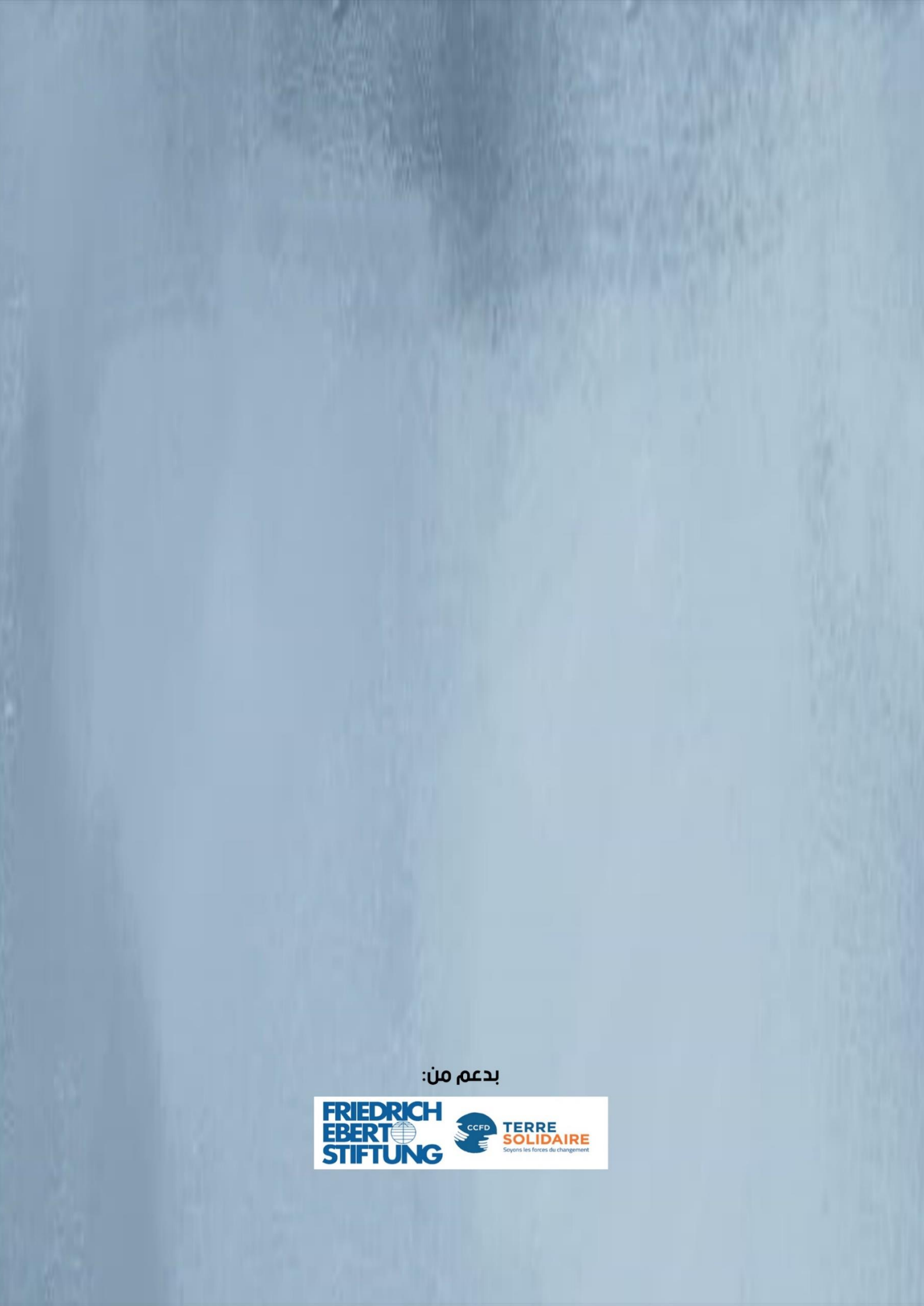

بدعم من:

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement